تكوين الفكر العربي قبل الإسلام (3)

الدكتور رشاد محمد خليل

يلحق بفصل التجريد والمجاز موضوع هو ثمرة من ثمرات التجريد والمجاز وهو موضوع كان يسمى قديما فقه اللغة وهو شيء آخر غير فقه اللغة في الدراسات اللغوية الحديثة وقد جمع بعض علماء اللغة قديما تحت عنوان (فقه اللغة) مادة لغوية رتبوها ترتيبا خاصا اطلق عليه ابو منصور الثعالبي اسم فقه اللغة وهذا الموضوع على جانب كبير من الاهمية وان كان اللغويون انفسهم لم يجمعوا هذه المادة على اساس علمي وانما جمعوها ورتبوها على اساس لغوي صرف مما جعلها في الغالب ناقصة ومبتورة ومشوهة ولكنه رغم القصور الذي في هذه المادة فهي تلفت نظرنا الى القيمة العلمية للمادة اللغوية الموجودة في بطون المعاجم والى ضرورة محاولة الاستفادة منها باعادة ترتيبها ترتيبا يهتم باستخلاص المادة العلمية منها وذلك بجمع كل المادة التي تتعلق بموضوع واحد في باب خاص بها ثم الابواب التي تنتمي لعلم واحد تحت باب عام خاص بها اي ان جميع المادة الخاصة بعلوم الحيوان مثلا تحت (علم الحيوان) وجميع المادة الخاصة بالنباتات تحت (علم النبات) وجميع المادة الخاصة بالطبيعة تحت (علم الطبيعة) وهكذا .. وليس معنى هذا اننا نريد ان ننشيء علما عربيا في هذه الابواب ذلك ان المادة العلمية التي سنعثر عليها مهما بلغت لا يساوي شيئا بجانب هذا الانقلاب الهائل الذي حققه العلم الحديث ولكن اهمية هذا التصنيف هو اعادة دراسة الفكر العربي دراسة علمية موضوعية على اساس من مناهج مقررة لتحديد مكانته التاريخية ولكشف اسلوبه في النظر والتفكير وفهم الوجود المحيط بها ، وعرض هذا الفكر بصورته الجديدة والمدروسة على الاجيال العربية التي تجهل هذا الفكر جهلا تاما بل والتي لا تعرف ولا تتصور انه قد كان للعرب قبل الاسلام فكر وعلم على الاطلاق ثم لعرض هذه الصورة على العالم ليصبح موقفه من الفكر العربي وليصبح تاريخه للحضارة والعلوم الانسانية لان جميع الذين ارخوا للفكر الانساني وعلومه لم يضعوا في اعتبارهم قط احتمال ان يكون للعرب قبل الاسلام علم وفكر على الاطلاق والذي يلقى نظرة على اي موسوعة تؤرخ لتاريخ الفكر وعلومه لن يخرج بغير هذه النتيجة ، ان الفكر العلمي بالمعنى الصحيح تراث يوناني نقله المسلمون الى اوربا .

كتب فقــه اللغــة :

من هذه الكتب التى تخصصت فى موضوعات بعينها

كتب الابل لابى حاتم السجستانى (ـــ ـــ 248) وللاصمعى (122 ـــ 216) ، ولابى عبيدة (110 ـــ 206) ، وللنضر بن شميل (122 ـــ 203) ، ولابى زياد الكلابى ، ولاحمد بن حاتم الباهلى (ـــ ـــ 231).

كتب الخيل لابن قتيبة (213 ـــ 276) وابــن الاعرابى (150 ـــ 231) ، وابى عبيدة ، وابى جعفر محمد بن حبيب البغدادى (ـــ ـــ 245) ، وابى محلم محمد بن هشام الشيبانى (ـــ ـــ 245) ، ولاحمد ابــن حــاتم .

وكتب الغنم والشاة لابى الحسن الاخفش (ـــ ـــ 215) ، وللنضر بن شميل وللاصمعى .

وكتب الوحوش للاصمعى ، ولابى زيد (119 ـــ 215) ولابى حاتم السجستانى .

وكتب الطير لابى حاتم السجستانى ، والنضر بن شميل ، وأحمد بن حاتم الباهلى .

وكتب البازى والحمام والحيات والعقارب لابى عبيــدة .

وكتاب الفــرس للاصمعى .

وكتاب النحل والحشرات لابى حاتم السجستانى .

وكتاب النحل والعسل للاصمعى (1) .

والذى يستلفت النظر ان هذا النوع من التصنيف رغم قصوره يضع تحت ايدينا مادة خصبة لدراســة اسلوب العرب فى تتبع مختلف الظواهر التى عرفوها وفى ملاحظتها وترتيبها وتصنيفها .

وقد جمع أبو منصور هذه الظواهر فى ثــلاثين بابا كل باب مقسم الى عدة فصول تتراوح بين ثلاث فصول وستة وستين فصلا فى الباب الواحد .

وقد رتب ابو منصور ابوابه على الوجه الآتى :

الباب الاول : فى الكليات وفيه اربعة عشر فصلا .

الباب الثانى : فى التنزيل والتمثيل وفيه خمسة فصول .

الباب الثالث : فى الاشياء وتختلف اسماؤها واوصافها باختلاف احوالها وفيه ثلاثة فصول .

الباب الرابع : فى اوائل الاشياء واواخرها وفيه ثلاثــة فصــول .

الباب الخامس : فى صفات الاشياء وكبارها وعظامها وضخامها وفيه عشرة فصول .

الباب السادس : فى الطول والقصر وفيه اربعة فصول .

الباب السابع : فى اليبس واللعين والرطوبــة وفيــه اربعــة فصــول .

الباب الثامن : فى الشدة والشديد من الاشياء وفيه اربعــة فصــول .

الباب التاسع : فى الكثرة والقلة وفيه ثمانية فصول .

انباب العاشر : فى سائر الاوصاف والاحوال المتضادة وفيه سبعة وثلاثون فصلا .

الباب الحادى عشر : فى الملء والامتلاء والصفورة والخلاء وفيه عشرة فصــول .

الباب الثانى عشر : فى الشىء بين الشيئين وفيه ستــة فصــول .

الباب الثالث عشر : فى ضروب الالوان والآثار وفيــه تسعة وعشرون فصلا .

الباب الرابع عشر : فى اسنان الناس والدواب وتنقل الحالات بها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب الخامس عشر : فى الاصول والاعضاء والرؤوس والاطراف واوصافها وما يتولد منها ويتصل بها ويذكــر منها وفيه ستة وستون فصلا .

الباب السادس عشر : فى الامراض والادواء وما يتلوها وما يتعلق بها وفيه اربعة وعشرون فصلا .

---

(1) مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ج 1 ص 14 ـــ 16 نقلا عن وفيات الاعيان لابن خلكان وبغيــة الوعاة للسيوطى ونزهة الالباء وفهرس بن النديم وكشف الظنــون ومعجــم الاديــاء .

الباب السابع عشر : فى ضروب الحيوانات وأوصافها وفيه تسعة وثلاثون فصلا ·

الباب الثامن عشر : فى الاحوال والافعال الحيوانية وفيه سبعة وعشرون فصلا ·

الباب التاسع عشر : فى الحركات والاشكال والهيئات وضروب الضرب والرمى وفيه اربعون فصلا ·

البـاب العشرون : فى الاصوات وحكاياتها وفيه ثلاثة وعشرون فصلا ·

الباب الحادى والعشرين : فى الجماعات وفيه اربعة عشر فصـلا ·

الباب الثانى والعشرين : فى القطع او الانقطاع والقطع وما يقاربها من الشق والكسر وما يتصل بهما وفيـه سبعة وعشرون فصلا ·

الباب الثالث والعشرين : فى اللباس وما يتصل بـه والسلاح وما ينضاف اليه وسائر الآلات والادوات وما ياخذ مأخذها وفيه تسعة واربعون فصلا ·

الباب الرابع والعشرين : فى الاطعمة والاشربة ومـا يناسبها وفيه سبعة عشر فصلا ·

الباب الخامس والعشرين : فى الاثار العُلْوية وما يتلو الامطار من ذكر المياه وأماكنها وفيه ثمانية عشر فصلا ·

الباب السادس والعشرون : فى الارضـين والرمـال والجبال والاماكن والمواضع وما يتصل بها وفيه سبعة عشر فصلا ·

الباب السابع والعشرون : فى الحجارة وفيـه ثلاثـة فصول ·

الباب الثامن والعشرون : فى النبـت والزرع والنخـل وفيه سبعة فصول ·

الباب التاسع والعشرون : فى ما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية وفيه خمسة فصول ·

الباب الثلاثـون : فى فنون مختلفة الترتيب من الاسماء والافعال والاوصاف وفيه تسعة وعشرون فصلا ·

وقد فعل الاسكافى شيئا قريبا من هذا فى كتـاب مبادىء اللغة وان كان لم يقسم أبوابه الى فصول كما فعل الثعالبى وكذلك فعل ابن سيده فى كتابه المخصص وقد قام باعادة ترتيبه وتنسيق مادته بعد الاستعانـة بالقاموس المحيـط وفقه اللغـة والمصبـاح واللسان والاساس وغيرها من كتـب اللغة ـــ عبـد الفتـاح الصعيدى وحسين يوسف موسى فى كتاب الافصاح ·

ونخرج من هذه التصانيف بأن العرب قد لاحظوا كافـة الظواهر التى وقعت تحت ملاحظتهم ـــ حسية كانت او معنوية ـــ وحصروها ورصدوها فى مختلف أحوالهـا ومن مختلف جوانبها ·

اما من ناحية العموم والشمول كالكليات من سماء وارض وحيوان ونبات .. الخ او من ناحية اختـلاف الاحوال واختلاف الاسماء والصفات باختلافها كـأن يقـال : كأس اذا كان يشرب فيها والا فهى زجاجـة·

وكأن يقال : الصبح فى أول النهار والغسق فى أول الليل وذلك فى اليوم الواحد ·

او من ناحية الحجم كالكبر والعظم او الضخامة والصغر .. الخ ·

او من ناحية الهيئة : كالطول والقصر .. الخ ·

او من ناحية الشدة : كاليبس والليونة والشدة والرخـاوة ·

او من ناحية الكثرة والقلة ·

او من ناحية التضاد كالبياض والسواد ·

او من ناحية السّعة كالخلاء والامتلاء ·

او من ناحية اللون او النمو او الصوت .. الخ ·

ولم يلفت شىء من ملاحظتهم ما وقع تحتها كما ان ملاحظتهم للظواهر لم تكن سطحية او عابرة تكتفى بتوصف الشىء فى عمومه وجملته ·

ونضرب لذلك مثلا باحدى الظواهر الحسية وهى : تفصيل كمية المياه وكيفيتها ·

اذا كان الماء دائما لا ينقطع ولا ينزح فى عين او بئر فهو عِدّ .

فاذا كان اذا حرك منه جانب لم يضطرب جانبه الآخر فهو كُرّ .

فاذا كان كثيرا عذبا فهو غَدق وقد نطق به القرآن.

فاذا كان مغرقا فهو غَمْر .

فاذا كان تحت الارض فهو غَوْر .

فاذا كان جاريا فهو غِيل .

فاذا كان على ظهر الارض يسقى بغير آلة من دالية او دولاب او ناعورة او منْجَتون فهو سِيح .

فاذا كان ظاهرا جاريا على وجه الارض فهو معين وسَنِم وفى الحديث (خير الماء السَّنِم) .

فاذا كان جاريا بين الشجر فهو غلل .

فاذا كان مستنقعا فى حفرة او نقرة فهو ثَقَب .

فاذا نبط من قعر البئر فهو نَبَط .

فاذا غادر السيل منه قطعة فهو غَدِير .

فاذا كان الى الكعبين او الى انصاف السُّوق فهو ضَحْضاح .

فاذا كان قريب القعْر فهو ضَحْل .

فاذا كان قليلا فهو ضهل .

فاذا كان أقل من ذلك فهو وَشَل .

فاذا كان خالصا لا يخالطه شىء فهو قراح .

فاذا وقعت فيه الاقمشة حتى كان يتدفق فهو سَدِم.

فاذا خاضته الدواب فكدرته فهو طَرْق .

فاذا كان متغيرا فهو سَجِس .

فاذا كان نتنا غير آنه شروب فهو آجِن .

فاذا كان لا يشربه أحد من نتنه فهو آسِن .

فاذا كان باردا مغتنا فهو غسّاق (بتشديد السين وتخفيفها) . ، وقد نطق به القرآن .

فاذا كان حارا فهو سُخن .

فاذا كان شديد الحرارة فهو حَمِيم .

فاذا كان مُسَخَّنا فهو مُوعَز .

فاذا كان بين الحار والبارد فهو فاتِر .

فاذا كان باردا فهو قار .

ثم خصر .

ثم شَبِم .

ثم شُنَان .

فاذا كان جامدا فهو قارس .

فاذا كان سائلا فهو شرب .

فاذا كان طريا فهو غريض .

فاذا كان ملحا فهو زُعَاق .

فاذا اشتدت ملوحته فهو حُراق .

فاذا كان مُرا فهو قُماع .

فاذا اجتمعت فيه الملوحة والمرارة فهو أُجاج .

فاذا كان فيه شىء من العذوبة وقد يشربه الناس على ما فيه فهو شَريب .

فاذا كان دونه فى العذوبة وليس يشربه الناس الا عند الضرورة وقد تشربه البهائم فهو شَرُوب .

فاذا كان عذبا فهو فرات .

فاذا زادت عذوبته فهو نُقاح .

فاذا كان زاكيا فى الماشية فهو نَمير .

فاذا كان سهلا سائغا متسلسلا فى الحلق من طيبه فهو سلسل وسلسال .

فاذا كان يمس الغلة فيشفيها فهو مَسُوس .

فاذا جمع الصفاء والعذوبة والبرد فهو زلال .

فاذا اكثر عليه الناس حتى نزحوه بشفاههم فهو مَشْفُوه ثم مَمْؤود به ثم مَضْفوف . ثم مَمْكوك ثم مَجْموم ثم مَنْقوص وهذا عن ابى عمر الشيبانى (2) .

امثلة لبعض الظواهر المعنوية :

رجل مُعْجِب .

ثم تائِه .

ثم مَزْهو من ومَنْخُو من الزهو والنخوة .

ثم باذخ من البَذْخ .

ثم اصْيد اذا كان لا يلتفت يمنة ويسرة من كبره.

ثم مُتَغطْرف اذا تشبه بالغطارفة كثيرا .

ثم مُتغطرس اذا زاد على ذلك (3)

---

(2) فقه اللغة للثعالبى ص 289 : 129 .
(3) نفس المصدر السابق ص 154 .

العبوس :

اذا روعى ما بين عينيه فهو قاطب وعابس ·

فاذا كشر عن انيابه مع العبوس فهو كالح ·

فاذا زاد عبوسه فهو ياسر ومكفهر ·

فاذا كان عبوسه من الهم فهو ساهم ·

فاذا كان عبوسه من الغيظ وكان مع ذلك منتفخا فهو مُبَرطم عن الليث عن الاصمعى (4) ·

كيفية النظر وهيئاته فى اختلاف احواله :

اذا نظر الانسان الى الشيء بجامع عينه قيل رَمَقه

فان نظر اليه من جانب اذنه قيل لَحَظه ·

فان نظر اليه بعجلة قيل لَمَحه ·

فان رماه ببصره مع حدة نظر قيل حدجه بطرفه وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه حدث القوم مما حدجوك بابصارهم ·

فان نظر اليه بشدة وحدة قيل ارشَقه وأسَفّ النظر اليه وفى حديث الشعب انه كره ان يُسيف الرجل نظره الى أمه واخته وابنته ·

فان نظر اليه نظر المعجب منه او الكاره له او المبغض إياه قيل : شَفَنَه وشَفَن اليه شُفونا وشَفْنا ·

فان أعاره لحظ العداوة قيل نظر اليه شَزْرا ·

فان نظر اليه بعين المحبة قيل نظر اليه نظرة ذى عِلق ·

فان نظر اليه واضعا يده على حاجبه مستظلا بها من الشمس ليستبين المنظور اليه قيل استكفه واستوضحه واستشرفه ·

فان نشر الثوب ورفعه لينظر الى صفاقته وسخافته او يرى عوارا ان كان به قيل استَشفّه ·

فان نظر الى الشيء كاللمحة ثم خفى عنه قيل لاحه لوحة كما قال الشاعر : وهل تنفعنى لوحة لو الوحها

فان نظر الى جميع ما فى المكان حتى يعرفه قيل نفضه نفضا ·

فان نظر فى كتاب او حساب ليهذبه او ليستكشف صحته وسقمه قيل تصفحه :

فان فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل حدق ·

فان لاهما قيل ترق عينيه

فان انقلب حملان عينيه قيل حملق ·

فان غاب سواد عينيه من الفزع قيل ترق بصره ·

فان فتح عين مفزع او مهدد قيل جمح ·

فان بالغ فى فتحها وأحدّ النظر عند الخوف قيل حدج وفزع ·

فان كسر عينه فى النظر قيل دنقس وطرفس عن ابن عمرو فان فتح عينيه وجعل لا يطرف قيل شخص وفى القرآن شاخصة ابصارهم ·

فان ادام النظر مع شكون قيل اسجد عن ابن عمرو ايضا (5)

فان نظر الى افق الهلال لليلته ليراه قيل : تبصره

فان اتبع الشيء بصره قيل اثاره بصره (5) ·

* * *

يلاحظ على هذه الظواهر انها تتبع فى طريق الملاحظة والاستقصاء والرصد والتسجيل خطوات المنهج العلمى التجريبى الحديث ولهذا كما نعتقد دلالة علمية خطيرة لانها تضعنا امام عقلية علمية تجريبية نضجت فيها الى حد كبير ملكات عقلية متعددة من قوة الادراك وشموله وسعته ومن سعة الخيال وتنوعه ومن عمق الملاحظة ودقتها ونفاذها ومن القدرة على الترتيب والتنسيق والتوصيف والتبويب ·

هذا على الرغم من ان علماء اللغة يهتموا بالقيمة العلمية لهذه المادة وانما اهتموا بقيمتها اللغوية ولو انهم التفتوا الى القيمة العلمية التى التفت اليها الجاحظ فى كتابه الحيوان لوصل الينا علم كثير ودقيق فى مجال الظواهر التى وقعت تحت ملاحظتهم .

وابلغ دليل على ماتقول هو ذلك المرجع النفيس فى علم الحيوان الذى بذل فيه الجاحظ جهده واستوعب فيه جل المادة المعروفة فى عصره فى هذا الباب مما نقل عن اليونان وغيرهم بالاضافة الى المادة العربية وفى هذا يقول الجاحظ وهو حجة فى هذا الباب تحت عنوان

---

4) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة ·
(5) فقه اللغة 113 — 114 ·

معرفة العرب والاعراب بالحيوان : وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقراناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه او قريبا منه في اسفار العرب والاعراب وفي معرفة اهل لغتنا وملتنا

ولولا ان يطول الكتاب لذكرت ذلك اجمع . وعلى اني قد تركت تفسير اشعار كثيرة وشواهد عديدة مما لا يعرفه الا الراوية التحرير من خوف التطويل (6) .

وهذا الذي نراه يحملنا على ان نلفت النظر الى انه اذا تاكد فضل العرب على الحضارة الغربية واذا تاكد ان العرب هم الذين احيوا واسهموا في ارساء قواعد المنهج العلمي التجريبي والتطبيقي وذلك ما تناوله علماء ومؤرخون غربيون بالحديث والدراسة فان ذلك لا يجوز ان يرد فقط الى الحضارة العربية الاسلامية التي نضجت في ظلها العلوم التجريبية على ايدي علمائها المشهورين من امثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والرازي وابن سينا والبيروني والادريسي . وغيرهم وانما يجب ان يرجع به الى ما قبل الاسلام حيث وضع الاساس التجريبي وتكونت العقلية التجريبية واذا كان التجريب قبل الاسلام لم ياخذ طابعا معمليا ولم يقم على اساس وضع النظريات وانشاء الفروض والتاسيس عليها واستخلاص النتائج العلمية فان ذلك لايمكن ان يقلل من قيمة المرحلة السابقة على الاسلام لانها المرحلة التي اختمرت ونضجت فيها الملكات العقلية الاساسية اللازمة لهذا النوع من الدراسة والتي استطاعت حين اتيحت لها الفرصة في ظل الحضارة الاسلامية وبعد ترجمة العلوم ان تؤتي اكلها في صورة النظريات العلمية والمدرسات المعملية التي ازدهرت بها جوانب كثيرة من جوانب المعرفة التطبيقية في الكيمياء والبصريات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك .. الخ على ايدي العلماء المسلمين.

---

6) الحيوان ج 3 ص 268